5

أوقفي الحوار.. أريد الخروج

تتشارك الأمهات والبنات في تاريخ طويل.. وحياة طويلة. وهذا يتضمن حوارات طويلة على مدى هذه الحياة. ربما يضحكن على دعابة.. ربما يتكلمن بنفس الطريقة والسرعة.. ويعرف كل منهما ما يعني الآخر بمجرد النطق بكلمة أو اثنتين.. إن تقاسم هذه الأحاديث الكونية من الممكن أن يكون مصدر متعة، لكن هناك وجوه أخرى لطرق هذا الحديث كالتي تغضب وتثير، وكلاهما يعرف جيدًا هذه الطرق. إنها أشبه بالاستماع إلى مذياع قديم مثبت على إذاعة واحدة وكلاهما يعلم ما الذي سيأتي على هذه الإذاعة عند سماعها ملاحظة معينة أو تميز نغمة صوت أو إيقاع معين. فلو كانت تتوقع بعد الملاحظة أو الإيقاع شيئًا لن يعجبها فإنها ستشد ظهرها متوقعة ما سيأتي قبل أن يقال. ربما سيتحول الحوار فجأة إلى مناقشة متوترة، المناقشة نفسها التي دارت بينهما مرات كثيرة. إنهما تدركان الدراما في هذا المذياع لكنهما عاجزتان عن تغيير القناة فقد ثبت مؤشر المذياع على هذه القناة للأبد.

في بعض الأوقات تبدو البنت والأم وكأنهما تتشاركان في طقوس شعائرية غامضة، حيث يلعب كل منهما الدور الخاص به. قال رجل - معبراً عن رأيه-: إنه يسمع صديقته تتحدث إلى ابنتها الراشدة على الهاتف وتفتح مواضيع يعلم أنها سوف تحول حوارهم الودي إلى منعطف خطير. ولأن الاثنتين تحبان بعضهما وعلاقتهما ممتازة فستضعان حدًا

لهذا الحوار في آخر الأمر، وتعودان إلى النغمة المتجانسة التي كانت تغلب على الحديث. لكن هذا الرجل يتعجب ويتساءل: إذا كان هو يستطيع رؤية هذا في حوارهن، لماذا لا تستطيع الأم وابنتها رؤيته؟ وأعتقد أن الإجابة هي أن شيئاً ما يحث الأم على المحاولة مرة أخرى لجعل ابنتها ترى الأشياء من منظورها، وشيئاً يحث ابنتها لتستجيب لها بالطريقة نفسها المعتاد عليها. والسبب في أن هذا الرجل يرى ما يحدث بينهما لأنه في خارج الدائرة. وإذا استطاعت الأم وابنتها الخروج من الدائرة ومراقبة ما يجري فستكون رؤيتهما أفضل، وستتضح أيضاً طرق جديدة لتغيير النص الذي يدور بينهما.

إننا نعزف أغنيتنا

إن نمط الحديث الذي سمعه الرجل بين المرأة وابنتها خلال مكالمتهما الهاتفية هو نمط يحدث ويتكرر يوميًا بين الأمهات وبناتهن في البيوت وعبر الهاتف. وهنا مثال: إن الطريق للعمل يأخذ من تريسي ساعة وربع الساعة من القيادة بينما يأخذ زوجها نصف ساعة فقط للوصول إلى عمله. وبما أن تريسي تعمل ساعات أطول وتقوم أيضًا بالاعتناء بالطفل وتنظيف المنزل؛ فإن أمها منى تعتقد أنه من المنطقي أن تنتقل ابنتها تريسي وعائلتها إلى بيت آخر قريب من عملها وليس قريباً من عمل زوجها. لكنها كلما فتحت الموضوع مع ابنتها ينتهي الأمر بمناقشة حادة. ومع ذلك فإن الأم تستمر في فتح الموضوع مع ابنتها في كل مكالمة هاتفية. إن منى تعتقد أنها بذلك تعتني بابنتها، تحاول منع ابنتها من حمل كل المسؤولية على عاتقها. وتريسي تشعر أن أمها تنتقد بظلم الخيار الذي اتخذته. والأسوأ

من هذا أنها تكره أن يقع زوجها بينها وبين أمها. إضافة إلى أن رفض ونبذ زوجها هو طريقة غير مباشرة لرفضها أيضاً.

لنرى كيف تزداد حدة هذا الصراع وتتطور، فخلال حوار منى وابنتها تريسي علقت منى: «يا إلهي يا عزيزتي.. تبدين متعبة». وتعترف تريسي: «نعم.. أنا متعبة». ثم تقول أمها: «تعرفين عزيزتي أنك منهكة بسبب التزاماتك الكثيرة. هل فكرت في البحث عن منزل قريب من عملك كما سبق وتكلمنا من قبل؟ هنا بدأ ضغط دم تريسي بالارتفاع بينما تعيد الكلام نفسه الذي تقوله عندما تفتح أمها موضوع الانتقال إلى منزل آخر: «أمي.. لقد أخبرتك من قبل لقد بحثنا ولم نجد منزلاً جميلاً قريباً من المدينة، إلى جانب أن زوجي لديه عمل إضافي في البيت وهو يحتاج هذه الساعات ولكن عملي ينتهي بخروجي من المكتب». وردت أمها: «إنني أتألم عندما أراك تضعين احتياجات زوجك فوق احتياجاتك. إن هناك أحياء كثيرة قريبة من عملك وأنا متأكدة أنك تستطيعين إيجاد منزل جيد ومناسب. لقد رأيت بيوتاً للبيع في إعلان في الجريدة....» وهنا قاطعتها تريسي وقالت: «أنا أحب الوقت الذي أقضيه في القيادة لعملي ذهاباً وإياباً. إنه يعطيني فرصة لكي استرخي. لأني أكون وحيدة مع أفكاري قبل أن أصل للبيت وضغوطاته». قالت أمها: «لو لم يكن لديك التزام في العمل والقيادة لما كان وقتك في المنزل مضغوطاً». وخلال حديثهما كان غضب الأم يزداد من رفض ابنتها لتحسين حياتها. وفي المقابل يزداد غضب تريسي بينما أمها تستمر بالنقد. تتساءل تريسي لماذا تعيد أمها فتح الموضوع نفسه دائمًا بالرغم من أنها قالت ما عندها؟

لماذا بالفعل تستمر الأم في إعادة النقطة نفسها التي تعلم أنها تغضب ابنتها؟ ولماذا تعلق تريسي بالشبك نفسه في كل مرة؟ وأنا نفسي أتعجب من ذلك بما أنه دار بيني وبين أمي حوارات مشابهة.

وعندما أنظر للموضوع من منظور الأم أجد أن درب الأم مضاء بإشعاعات الأمل، فهي لا تفقد الأمل في تنقيبها لتحسين وحماية حياة ابنتها عندما لا تنجح هي في ذلك. وعند النظر في تصرفات الأم من وجهة نظر البنت، فالبنت تعتقد أن الأم مسيرة بالعناد الأعمى، إنها متأكدة جدًّا من أنها على حق لدرجة أنها تعتقد أن ابنتها ستحول رأيها مئة وثمانين درجة وترى وجهة نظرها. علاوة على ذلك فإنه من المؤكد أن الأم غير واعية للألم الذي يتضمنه عدم رضاها، وتبدو أنها لا تلاحظ أو لا تهتم بأنها تجعل ابنتها تشعر بالسوء. هل من الممكن أن يكون هذا بالفعل هدفها؟

وبضم وجهات النظر هذه فإنني أرى أن الأم لا تلاحظ أنها تزعج وتؤلم ابنتها لأنها تركز على رسالة محاولة تحسين حياة ابنتها بدلاً من التركيز على ما وراء الرسالة من معنى ضمني لعدم الموافقة. وتقسو الأم بسبب شعورها بالضعف. إنه من الواضح ما يجب على البنت فعله ومع ذلك فالأم لا تستطيع إجبار البنت على فعل شيء! لقد زودت آلة الحرب بالوقود عن طريق إصرار تريسي بإخبار أمها أن خياراتها لم تكن خاطئة وأنها لن تنجح في تحطيمه. وكانت تريسي قد افترضت الإهانة المخفية داخل كلام أمها والذي اعتبرته الأم حماية.

أيضاً هناك طريقة أخرى لتزويد هذه القوة الساحقة لآلة هذا الحديث بالوقود وهو استمرار الحوار نفسه. فكلما تجاوبت واحدة منهن لتعليق

الأخرى تزايدت شرارات الغضب وزادت معها التعليقات الغاضبة. ونعود للوراء قليلا فلولا أن البنت قالت إنها كانت تحتاج الوقت الذي تمضيه في السيارة للراحة والانفراد بنفسها لما قالت الأم إن التزاماتها الكثيرة تجعلها في البيت منهكة ومتوترة. وتريسي قالت هذا حتى ترد على أمها التي قالت إن الالتزامات الطويلة صعبة، وقالت أيضاً إن زوجها يحتاج هذه الساعات للعمل في البيت. كان هذا هو التعليق الذي جعل الأم تعتقد أن ابنتها تضع احتياجات زوجها فوق احتياجاتها. والأم قد ذكرت موضوع انتقال ابنتها فقط لأنها اعتقدت أن ابنتها منهكة ومتعبة. لكن في الحقيقة لم تكن تريسي متعبة هي فقط، قالت هذا حتى لا تتعارض مع جملة أمها عندما قالت:«تبدين متعبة» كل تعليق كان إجابة لما قالت الأخرى. وتستمر الاثنتان باستفزاز بعضهما في وقت واحد في دائرة تؤيد فيها كل منهما نفسها، مضيفة إلى الشرارة التي تصبح غضبًا فيما بعد.

غضب متبادل

استخدمت تعبير «الانقسام التام» لوصف هذا الغضب اللولبي المتبادل. وقد صاغ هذا التعبير العالم المتخصص في علم الإنسان جريجوري باتيسون لوصف ماذا يمكن أن يحدث عن التقاء ثقافات مختلفة. كل منهما تتفاعل مع الأسلوب النمطي للأخرى عن طريق اللجوء للأسلوب المعاكس والمضاد له. ولتمثيل هذه العملية فإن باتيسون أشار إلى ثقافة مفترضة ومتصورة تميل إلى التوكيد والجرأة، حيث إنها تحتك مع الثقافة التي تصور أمثلة وأنماطاً للخضوع والطاعة. كتب باتيسون يقول: «على الأرجح إن الخضوع سوف ينشئ وقاحة وجرأة أكثر والتي بدورها سوف تنشئ خضوعًا وطاعة أكثر».

قام باتيسون أيضاً بابتكار تعبير «الانقسام المتماثل» لوصف ما يحدث عند التقاء ثقافات لها أنماط وأساليب متشابهه نسبيًا. إذا وجد نفس الأسلوب في كلا الثقافتين فإنه يصنف في خانة التشابه بدلا من خانة الاختلاف.

ولتوضيح هذه العملية فإن باتيسون يضع حالة فرضية لثقافتين مختلفتين تظهر وتعرض التبجح والتباهي. كل منهما يتجاوب مع أسلوب الثاني بالتباهي والتفاخر من خلال زيادة حدة أسلوبه. يصبح الأسلوب مبالغاً فيه في كلا الثقافتين لكن من خلال طرق متشابه.

لقد تبنيت تعبير ومفهوم باتيسون لوصف ما يحدث بين المتحدثين في الحوارات اليومية. إن «الانقسام المتماثل» يمكن أن يمثل في حالة شخص ينزعج من شخص آخر ويرفع صوته، والثاني يزيد من رفع صوته في المقابل. وفي النهاية يصبح كلاهما صارخاً، وكلاهما متجاوبٌ مع الآخر عن طريق تقوية نفس نمط الأسلوب وهو « رفع الصوت» وفي المقابل فإن «الانقسام التام» يصف حالة امرأة تنزعج وترفع صوتها ثم تقوم الأخرى بخفض صوتها حتى تستطيع توصيل فكرتها، وهي أن الصراخ أمر غير مقبول. وهذا يغضب المرأة الأولى، لأن خفض الصوت يدل على قلة الاشتراك العاطفي. لذا فهي تزيد من رفع صوتها مما يجعل الثانية تتكلم بصوت أنعم من الذي سبق. وفي النهاية الأولى تصرخ والثانية تهمس أو حتى أنها تراجعت وسكتت نهائياً. هذا هو «الانقسام التام» لأن تجاوب كل واحدة منهن مع الأخرى يؤدي إلى المبالغة وزيادة حدة أسلوب الأخرى.

عندما يحدث «الانقسام المتماثل» في الحوار فإن الطرفان يعرفان تماماً ما يحدث، فكلاهما يتحدث بطرق معروفة ومفهومة. لكن «الانقسام

التام» من الممكن أن يكون مربكاً حيث يكون سلوك الطرف الآخر غير معقول بالنسبة لك. وطرق الحديث التي استخدمتيها لن يكون لها التأثير نفسه الذي أردت. وبالرغم من ذلك لا تستطيع التفكير بأية طريقة أخرى للتعامل مع هذا الموقف. إنه أشبه بما لو أنك كنت تجلس على أرجوحة وزميلتك قفزت من الطرف الآخر رامية بك إلى الأرض. إنك بالطبع تعرفين أين سقطت لكنك لست متأكدة من كيفية وصولك إلى هذا المكان. عندما يسيطر «الانقسام التام» على الحوار فأنت ترين نفسك تتكلمين بطرق لم تنوي التكلم بها. وتتعجبين من طريقة كلامك ومن نوع الشخصية التي أصبحت عليها. هذه النوعيات من الحوار من الممكن أن تصيب الإنسان بالجنون خصوصًا إذا ازداد حدوثها وأصبحت شريطاً يعزف في حلقة أبدية.

ندور وندور

إن هناك طرقاً عديدة تجعل الأم وابنتها تقع في فخ «الانقسام التام». ويحدث على الأرجح عندما تتفاوض الأم وابنتها في القرب والبعد. مثلا «إيرين» تريد التقرب من ابنتها مارج عن طريق الاتصال بها كثيراً ودائماً تحاول فتح الحوار الذي تعتقد أنه مناسب، عن طريق سؤالها عن مجرى حياتها وإخبارها بالمقابل عن أمورها التي تقلقها كصحتها وشعورها بالوحدة. مارج تشعر أن أمها تتصل بها كثيراً وأن أسئلتها متطفلة. هي تتكلم كثيراً عن نفسها، والشيء الأكثر إزعاجًا لمارج هو حديث أمها عن وحدتها. لأن مارج لا تأخذ شكوى أمها من باب الحديث العابر والتي يمكنها أن تعلق عليه بقول: «أعرف ما هو شعورك» لكنها تأخذه من باب

النقد وكأن أمها تقول: «إنني وحيدة لأنك لا تقضين وقتاً كافيًا معي». وكنتيجة لهذا فإن مارج تحد من المعلومات التي تعطيها لوالدتها ولا تسأل أمها أسئلة عن نفسها أبدًا حتى لا تشجعها على الكلام لمدة أطول. تحاول إنهاء المكالمة بأسرع وقت مدعية بأنها مشغولة وهي بالفعل كذلك. وبينما تتراجع البنت فإن الأم تكثف من الجهود التي تقربها من ابنتها، كالاتصال مرات عديدة، وطرح أسئلة أكثر. والمبالغة في الحديث عن حالتها الصحية لتحسين فرصة التجاوب من ابنتها. كل هذا يدفع مارج لجمع جهودها للحفاظ على المسافة بينها وبين أمها. ولا واحدة منهما تدرك أن التصرف الذي لا تحبه من الأخرى هو في الحقيقة ردة فعل لأسلوبها نفسها. إيرين ترى ابنتها باردة وبعيدة منها، لكنها لا ترى أن هذا البعد هو ردة فعل لمحاولتها المتواصلة للقرب من ابنتها. وفي المقابل فإن مارج تعتقد أن أمها متطفلة ولا يخطر ببالها أن تطفل أمها يحدث بسبب هروبها الدائم. كل منهما ترى أنها تستجيب وتتفاعل لما بدأته الأخرى. لكن لا يشككن في المجرم المسمى «الانقسام المتماثل».

ولأن هذه العملية تدار على مستوى «ما وراء الرسالة» فإنه من الصعب رؤيتها، ولذا فمن الصعب إيجاد منفذ للخروج منها.

هذه أيضاً قوة أخرى من الممكن أن تجعل الأم والبنت تشعران بالضعف ولهذا السبب تدركان مدى قوة الطرف الآخر. إيرين تشعر بالعجز لأنها لا تعلم ما يمكنها فعله لبناء الجسر بينهما، و مارج تتصرف بهذا الشكل لأنها تشعر بأن قوة أمها غالبة على كل شيء. بالنسبة للبنت فإن قدرة أمها على حبس أو منح الرضا هي كما السيف العظيم المتوازن على رأسها. إن البنات الراشدات عادة لا يدركن تطور قوتهن، مثل القدرة على الحد من

التواصل والتحكم برؤية الأحفاد، وبالمقابل فإن هذا يكون بمثابة السيف القوي الذي يلوح دائماً بالتهديد.

أسلوب الاختلاف المتناقض

إن الحوارات المزعجة أحياناً بين أفراد العائلة «إضافة إلى الأم وابنتها» تنتج من الاختلاف في المزاج والعادات. واحدة تكون مفرطة في النظافة بينما تكون الأخرى مهملة بدون أمل بالتحسن. واحدة تستعد قبل الرحلة بأيام بينما تقوم الأخرى بإعداد حقيبتها بجنون قبل ساعة من الإقلاع. واحدة لا يمكنها أن تخطو خطوة للخارج بدون أن تسرح شعرها وتتأكد من ملابسها وزينتها، والثانية تلبس أي شيء في خزانة الملابس وتربط شعرها على شكل ذيل فرس وتذهب في سبيل الحفاظ على التزامها بالموعد. ولأنه عرف عن هذه الاختلافات في الماضي أنها تؤدي إلى الإحباط والكلمات القاسية، فستحاول واحدة منهما أن ترأس الرد غير الودي من خلال عدم المباشرة. والمثير للسخرية أن عدم المباشرة هذه تكون مثيرة. حالة مطابقة لهذا كانت قد وصفتها تلميذة لي تدعى ساندرا، والتي كتبت ورقة بحث بناءً على حوارات دارت بين أمها وجدتها. تواجه ساندرا دائمًا تحدياً مع أمها، فهي حريصة على الدقة ـ ودائمة القلق ـ وبينما تحترم عائلة ساندرا الالتزام بالوقت في المواعيد، إلا أن ساندرا تقع في المنتصف بعض الأحيان. ومن الممكن أن يتخذ الخلاف سبيله بينهم، فيكون إحباطًا كبيرًا للطرفين. عندما تقرر ساندرا وزوجها وأولادهما السفر بالسيارة إلى منزل جدتهم «أم ساندرا» لحفلة عائلية، فإن أمها تبدأ بالاضطراب والتوتر حول موعد وصولهم والذي يعتمد على موعد خروجهم من البيت. وفي إحدى المرات وبينما كانت عائلة ساندرا تستعد للخروج في الساعة الحادية عشرة صباحاً

وهو وقت كافٍ إذا ما وضعنا بالاعتبار أن المسافة تحتاج أربع ساعات قيادة وأن العشـاء سيقدم بين الساعة الخامسـة والسادسة. رن جرس الهاتف في العاشـرة صـباحا، كل العائلة تعلم بالضـبط من هو المتصل، إنها الجدة أم ساندرا. قد اتصلت حتى تتأكد من موعد خروجهم ولتشجعهم على الخروج بوقت أبكر. ترفع سـاندرا سـماعة الهاتف وتسـمع: «مرحباً يا ساندي!» إن سـاندرا تعرف تماماً هذه النغمة المرحة المتعارضة مع القلق الذي كان سبباً في المكالمـة. قالت أمها: «إن علـي الذهاب خارجاً، وددت أن أعرف فقط إذا كنتـم قـد خرجتم أم لا». لكن سـاندرا تعـرف أن ما تود أمهـا قوله هو «ما الذي تفعلينه في المنزل إلى الآن؟ تحركي اسـتعملت أمها الخروج من المنزل كحجة وسـتارًا للمكالمة الهاتفية». وكما لو أن خروجها في الصباح له علاقة بوصولهم في المساء.

يستمر الحوار بإحباط متبادل، تسأل الجدة: «حسنًا متى ستخرجون؟ «تجيب ساندرا»: إننا نهدف أن نخرج في الحادية عشرة». مع أن كليهما يعلمان أن عائلة ساندرا على الأرجح لن تخرج في الوقت الذي يرمون إليه. هنا يكمن جمال وفائدة كلمة «نهدف» في محاولة لاستخدام الوقت المحدد كحبل سلامة. قالت أمها: «آه..حسنًا إذًا ستكونون هنا في الساعة الثالثة تقريباً». ساندرا تعلم جيدًا أن الموافقة على ساعة معينة هي فخ للتذمر فيما بعد. لذا فهي تراوغ: «آه.. ربما.. قريبًا من هذا. متى العشاء؟» إن ساندرا هي التي تستخدم عدم المباشرة الآن، حيث إن التلميح في سؤالها يبدو مباشرًا وواضحًا.وإذا كان العشاء لن يجهز إلا عند الخامسة أو السادسة؛ فإنه ليس من الضروري وصولهم عند الثالثة. وبما أن أمها تعلم هذا أيضًا ردت قائلة:» أوه.. الرابعة أو الخامسة إذًا.»

يا لهذا الدفع والجذب الرقيق.. ساندرا تدفع وقت العشاء للسادسة أمها تجذبه للوراء إلى الرابعة. وكما ترفض ساندرا تحديد الوقت الذي ستصل فيه فإن أمها ترفض تحديد وقتاً للعشاء، خوفًا من أن العائلة ستصل متأخرة، والذي بدوره سيفسد كل شيء، ولهذا فهي قلقة طيلة اليوم. زد على هذا القلق خوفها من حدوث حادث للعائلة خلال رحلتهم، وهو خوف لا يهدأ حتى تصل عائلتها الحبيبة والتي وصلت في آخر الأمر.

بينما تتحدث ساندرا وأمها عن الوقت أصبح كل منهما غير صريح تجاه الآخر. إذا كانت أم ساندرا قد اتصلت لتحدد وقت الوصول بالضبط فلقد انتهى الأمر إلى عدم تأكدها. وكلما سألت الأم ابنتها لتعدها بوقت محدد راوغت البنت أكثر. إن محاولة الأم في أن تبدو أسئلتها غير مقصودة أثبتت أنها مزعجة، وزادت من دفع ساندرا إلى تحديد وقت العشاء. مع أن ساندرا شعرت أنها ملزمة بالدفاع عن زوجها وأطفالها من خلال توضيح أنه ليس من الضروري عليهم الوصول مبكراً. في النهاية طريقة كل منهما دفعت الأخرى لتبالغ في صيغة الأسلوب المعاكس.

ليس هناك طريقة على الأرجح تستطيع فيها ساندرا تفادي الاحتكاك مع قضية الوقت. وبمعرفتها أن أمها وعائلتها لديها آراء ومواقف مختلفة تجاه الدقة في الوقت، فإنها على الأرجح لن تستطيع أبدًا تحديد موعد للوصول، أو أن تلزم عائلتها بهذا الوقت. وأمها في المقابل لن تخفف من شدتها ونظامها. أخيرًا قليل من المباشرة والصراحة والاعتراف بوجهة نظر الطرف الآخر قد يكون مفيدا فلو أن الأم قالت مثلاً: «أنا أعرف أنك لا تستطيعين التحكم الكامل بعائلتك وأنهم لا يهتمون بالوقت مثلي. أنا آسفة لأني أضغط عليك لتحديد الوقت، لكن سيكون من المفيد لي كثيراً لو

أخبرتيني بمجرى الأمور». وأن تكون إجابة ساندرا الآتي: «أنا أعرف أننا نقلقك يا أمي بطريقتنا، وأننا لا نستطيع تحديد وقت لوصولنا. أنا آسفة فعلاً لكني لا أستطيع جعلهم يتحركون بسرعة. سنتصل بك عندما نخرج من البيت وعندما نقترب منكم أيضاً».

طبقة أخرى: الانحياز

إن الأمثلة التي ضربتها في هذا الفصل قد أسست من حوارات دارت أمامي أو سمعتها من أشخاص، لكن الحوارات المحددة التي عرضتها كانت من صنعي، وفي حالة ساندرا كانت من ذكريات الابنة. ولنر صورة أدق لكيفية زحف الانقسام التام وتحكمه بالحوار فإنه من المفيد أخذ نظرة قريبة على الحوارات التي قد سجلت وترجمت. وفي بقية هذا الفصل فإني سأكشف عن تقدم الانقسام التام من خلال النظر في تفاصيل الحوارات الحقيقية، وبتغيير الأسماء بالطبع. هذه الحوارات قد سجلت وترجمت بواسطة تلاميذي حتى يعتادوا على تحليل الحوارات. ودارت هذه الحوارات الحقيقية بينهم وبين أمهاتهم. لم يكن هناك أي تجهيز لهذه الحوارات أو التعمد بتوجيه الحوار لزاوية معينة. إن التفسير الذي عرضته يبنى على ما كان يحدث في الحقيقة (وبالطبع لقد رأت العائلات تحليلاتي وسمحوا لي باستعمال حواراتهم بهذه الطريقة).

قام عدد من التلاميذ بتسجيل حوارات لا تتضمن أمهاتهم فقط، ولكن أخواتهم أيضا. ففي أي وقت يكون هناك ثلاثة أشخاص في الحوار فإن الأمور تكون أكثر تعقيدًا من أن يكون هناك اثنان فقط. وزيادة على ما يدور في الحوار فهناك التغير الدائم للطبقات والتي تؤثر في كلام المتحدث

والطريقة التي يتفاعل بها مع ما يقوله الطرف الآخر. وبكلمة «طبقات» أعني تركيز الاهتمام على الشخصين في الحوار واستبعاد الثالث. أو التواصل الظاهر، والذي يجعل أي اثنين في الحوار يبدوان كفريق واحد ضد الثالث. وكما هي الحال في الانقسام التام فإن هذه الطبقات تنشأ وتعمل على مستوى «ما وراء الرسالة»، لذا فإن تأثيرها ربما يكون محسوسًا لكن بالرغم من ذلك من الصعب وضع اليد عليه. لنرى كيف يعمل الانقسام التام وتغير الطبقات معًا في حوار يضم الأم والأب والبنت. سجلت تلميذتي هذا الحوار في إحدى الأمسيات بينما هي ووالداها وأختها الصغيرة «جوسي» يأكلون طعام العشاء. وفي تلك الأيام الماضية من حياتهم كان من الصعب أن يكون هناك حوار بين الأم والبنت ذات السابعة عشر ربيعًا بدون أن ينتهي بجدال عنيف. (كحال كل البنات المراهقات مع أمهاتهن في هذا السن). لم تشارك الأخت الكبرى في هذا الحوار واكتفت بالملاحظة. إن سنوات المراهقة تكون بيئة رقيقة للغاية، وسريعة التلف، ويمكنها أن تجبر بذور الخلاف على النمو والانتشار. وبالرغم من أن هذا الجدال أو المناقشات بصفة أو بأخرى محدودة بسنوات المراهقة فإنها تعطينا الفرصة لرؤية تأثير النقاط الصغيرة من الخلاف في تحويل الحوارات الحميدة إلى نقاش وجدال في أية مرحلة من الحياة. راقب هذا المقداح الرقيق، وكيف أن التجاوب المتنبأ به بينهم يثار ويتفاقم بشكل متبادل.

هناك نقطة خلاف مستمرة ودائمة في هذه العائلة، وهي اعتقاد أم جوسي أن جوسي تنفق الكثير من المال على الملابس والزينات. وأنها تتعمد شراءها من محلات أنيقة وغالية بدلاً من المحلات التجارية الرخيصة مثل «وال مارت». لذا فعندما يقول الوالد الذي يتفحص الجريدة: «أرى

أن وال مارت حقق مبيعات قياسية بالأمس». فإن بذرة الخلاف قد زرعت لتنمو بسرعة. فكلما زاد في ذكر هذا المتجر تذكرت زوجته أن ابنتها ترفض التسوق به. قالت الزوجة: «إننا لا نتبضع من هناك، فما الفائدة؟» أجاب الزوج «حسناً». هذا الجواب هو ملاحظة حيادية لمجرد عمل حوار، إنه حوار أشبه بالتقارير. (ربما يفاجئها هذا الجواب لأن هذا الحوار المخادع ليس شائعًا بين النساء).

لكن جوسي ذات السبعة عشر عامًا تتحدى أمها وتقول: «ما علاقة هذا بكل ما نقول؟». في حين أن الوالد لم يتحد الزوجة، وأنهى الحوار بكلمة «حسنًا» والتي ليس لها معنىً محدد، زادت الفتاه من هجومها على الأم:

الأم: إنني أقول فقط....

قاطعتها جوسي: تقولين ماذا؟

الأم: حسنًا. ما الموضوع هنا؟

جوسي: أي موضوع يا أمي؟

إن تغير مستويات الحديث وتأثيرها على الحوار بدأ بالظهور. عند تحديها لجواب زوجها فإن الزوجة تضع تركيزها عليه محدثة طبقات بينهما. لكن جوسي شعرت بأن أي تلميح عن التسوق في «وال مارت» يرسل رسالة خفية حرجة، وعلى أية حال فعند تحديها لتحدي أمها فإنها بهذا تقف وقفة حماية مع أبيها، منحازة له ضد أمها. وهذا يجهز المسرح لكل ما يأتي تبعًا.

يستمر الحوار وكلمات جوسي وأمها تحمل في طياتها رسائل خفية أقوى من المعاني الحرفية. وعندما تقول الأم: «إننا لا نتسوق في «وال مارت». فإن

الأب يظهر عجبه ويقول: «لا تتسوقين في وال مارت! كنت أظن أن لديهم كل شيء». ثم تلف الزوجة السؤال عليه ضاحكةً: «هل تتسوق أنت في وال مارت؟» فيجيب الزوج: «في الحقيقة أنا لا أتسوق في أي مكان». خلال هذا كانت نغمة صوت الأب خفيفة، لكن لم تكن نغمة جوسي كذلك. وبسرعة وجهت جوسي التعليق لأمها: «أنت أيضاً لا تتسوقين هناك يا أمي». وترد الأم: «بل إنني أفعل، يمكنك شراء صابون زينة معطر من هناك». استمرت جوسي باتهام أمها بأنها لا تفعل ما تقول: «بل تشترين الملابس من هناك يا أمي». لكن أمها ترفض وتأخذ جوسي رفضها كتبرير وتقول: «حسنًا.. لماذا إذاً علينا أن نشتري الصابون من هناك؟» وتزيد «ليس علي شراء الصابون لأنك تفعلين هذا عني». لم تشعر الأم بالهزيمة فقالت: «لكنك تشترين المكياج من هناك». ويستمر الحوار على هذا الوتر حيث تتبادل الأم والبنت الاتهامات والدفاع عن النفس في موضوع يبدو أنه تافه، لكنه استطاع تعكير صفو العائلة بوضوح. وفي النهاية يعطل الوالد قنبلة الجدال ويختم قائلاً: «حسناً إننا في هذه السنة سنقوم بشراء كل مشترياتنا من والمارت».

كانت النغمة التي قيلت بها الكلمات وليس الكلمات بعينها هي التي صنفت هذه التفاعلات على أنها جدال، وفي الحقيقة كان الجدال حول كون جوسي مجرد مراهقة وكل ما يتبع ذلك كنتائج: كعين النقد تجاه أمها والتي تنشأ في هذا السن. وشعور الأم بالإحباط بسبب تصرفات ابنتها، وأيضاً ألمها من أن ابنتها قد وقفت ضدها. لو أن جوسي لم تكسب غضب أمها بسبب تسوقها في أسواق غالية الثمن لربما فعلت شيئاً آخر سبب عدم رضاها. وبغض النظر عما أثار هذا النقاش فإنه من المدهش رؤية

ولادة هذا الجدال من كلمات الأب المرتجلة والتي قرأها في الجريدة. فإن موضوع وال مارت ذكر البنت والأم بالنزاع المستمر، وكلما تقدم الحوار وجدت الاثنتان طرقاً لجعل الأخرى تبدو خاطئة: حيث تحدت جوسي سؤال أمها لأبيها ثم انتقدت الأم البنت لعدم تسوقها في وال مارت ثم حاولت جوسي إثبات أن أمها لا تتسوق هناك أيضاً.

وتماماً كما الحال مع ساندرا وأمها واختلاف الآراء تجاه الدقة في المواعيد، فإن أصل هذا الخلاف كان في اختلاف الرأي والموقف تجاه التسوق. لكن تعليق الأب كان الشرارة في هذا الحريق الهائل، وبسبب نشاط جوسي في الدفاع عن أبيها ومعارضة أمها، وكان هذا هو العامل الحقيقي. وقد اشتد هذا النقاش بسبب رغبة الأم الشديدة في الدفاع عن نفسها وتذكير ابنتها بسلوكها الجارح. وبينما كان كل منهما يتجاوب ويرد على للآخر كان الانقسام التام يتسلل. بالرغم من أن التركيز كان في المعاداة الانحيازية بين الأم وابنتها، فإن مشاركة الأب بدون شعور أحدثت هذا النقاش ووفر الحكم النهائي عن طريق توزيع المعاداة الانحيازية بين الأم وابنتها وتوفير قليل من روح الدعابة والفكاهة.

إن هناك رسالة خفية دقيقة أيضاً تفسر تحدي الأم لتعليق زوجها منذ البداية وتوفير الفرصة لجوسي لأن تقف في صفه وتعاديها. فعندما كانت تلميذتي «الابنة الكبرى» تسجل هذه الشرائط – وبالرغم من أنها لم تتكلم خلال تسجيل الجزء الذي كانت تحلله – فقد فسرت أنها كانت هي ووالدها يضعان شريط التسجيل بشكل عفوي على مائدة الطعام في وقت العشاء أو الفطور آملين باصطياد أي تفاعل بين الأم وابنتها، هذا التعاون بحد ذاته بين الأب والبنت الكبرى هو انحياز قد أدركته الأم، وإذا صح هذا فإنه يكون قد شكل المسرح والخلفية لكل هذا النقاش.

كيف وصلنا إلى هنا؟

إن الحوار الآتي كان قد سجل أيضاً بواسطة الابنة الكبرى وقد تضمن أيضاً فتاةً مراهقة تدعى ميشيل. ميشيل في هذه المرحلة من عمرها تعتقد أن كل ما تفعله أمها خاطئ. ولكن في هذه الحادثة كانت البنت الكبرى بيتريشا هي التي تدافع عن أمها في مقابل هجوم أختها والذي زاد من غضب الصغيرة أكثر وأكثر. إن المعركة اللفظية دارت حول ذوق الأم في اختيار ملابسها، لكن هذا على مستوى الرسالة الصريحة فقط، لكن على مستوى الرسالة الخفية أو ما وراء الرسالة كانت المعركة حول نبذ ميشيل لأمها، ومحاولة الأم استرجاع رضا ابنتها عنها، وزد على هذا الانحياز بين الأم والبنت الكبرى. وتمامًا كما في المثال السابق فإن المعركة تبدأ بملاحظة عادية ثم تتصاعد بينما تزيد كل إجابة من حدة إجابة الطرف الآخر بالمقابل. إنها بطريقة أو أخرى معركة سخرية تتخللها ضحكات صغيرة واتهامات شديدة وبعيدة عن الخيال. ومع ذلك فإن المقايضة هي عبارة عن نقاط تنافس جدية ومقلقة. وبالنظر إلى كيفية نمو وتطور هذا الحوار يتضح لنا كيف يستطيع الانقسام التام تحويل الملاحظة الصغيرة إلى جدال كبير. سجلت باتريشا هذا الحوار بينما كانت عائلتها تتناول العشاء في أحد المطاعم. وبينما كانت الابنة الكبرى صامتة في المثال السابق كان الأب صامتاً في هذا المثال، لذا فإننا ننتهي بحوار ذي ثلاثة أطراف بالرغم من أننا بدأنا بأربعة أطراف ـ الأم والأب والبنتان.

وباقتراب نهاية الوجبة لفتت الأم نظر الجميع إلى الملابس التي كانت تلبسها - وهي طريقة عادية للنساء لإنشاء حديث الألفة. إن التجاوب العادي والمتوقع من المرأة الأخرى سيكون ملاحظة، وحكماً قريباً لموضوع

الملابس أو عن شيء من الملابس هي تملكه، وهي طريقة لبناء اتصال من خلال التشارك في حوار ودي. وبالفعل فإن كثيراً من النساء اللاتي ذكرن لي أنهن يشعرن بالقرب من بناتهن أو أمهاتهن ذكرن أن موضوع الملابس هو مصدر للمتعة المتشاركة بينهن. لكن في هذه الحالة فإن التعليق كان نقطة الانطلاق لميشيل لانتقاد أمها. وخلال الانقسام التام ازدادت ميشيل بالانتقاد، مما جعل الأم تزيد في الدفاع عن ذوقها؛ الذي بدوره جعل انتقادات البنت أكثر ألماً.

بدأ الحوار كالآتي:

الأم: هل يعجبك هذا المعطف؟

باتريشا: نعم، هل هو جديد؟

الأم: لا.

باتريشا: إنه جميل.

لو كانت باتريشا الابنة الوحيدة في ذلك الوقت لربما انتهى الحوار على ذلك، أو استمر الحوار حول الملابس مثل المكان الذي اشترت منه الأم، وكيف أن لون المعطف جميل ومناسب لبقية الملابس التي تقتنيها، أو كيف أنه يشبه معطفاً جميلاً رأته باتريشا في أحد الأسواق وهكذا.. لكن باتريشا لم تكن الابنة الوحيدة، فقد كانت هناك ميشيل أيضًا، ويفهم من ردة فعل أمها وأختها أنها قد قالت شيئاً على الشريط لا ينم عن الذكاء ولم يكن مدحًا:

باتريشا لأختها ميشيل: ماذا.. لا يعجبك؟

الأم: ميشيل لا يعجبها أي شيء من ملابسي.

ميشيل: (تلفظت البنت هنا بألفاظ غير لائقة بالنقل)

الأم: كل ما تفعله هو التعليق دائماً. أنا لا أصدق هذا. أنا أعتقد أن ملابسي جميلة وأنيقة.

عندما قالت الأم: «إن ميشيل لا يعجبها أيٌّ من ملابسي». كان هذا التعبير هو الرسالة، لكن ما وراء الرسالة كان الشكوى: لمَ تنتقد ميشيل معطف أمها الذي كانت ترتدي فقط؛ لكنها كانت دائمًا تنتقد ملابسها. وبالرد على عادة الانتقاد هذه فإن الأم دافعت عن نفسها: «أنا أعتقد أن ملابسي جميلة وأنيقة»، ووافقت باتريشا بالقول: بالفعل أنت أُمٌّ أنيقة.

لو كانت الأم قد قالت: «أنت دائما تنتقدين ملابسي». بدلاً من «أنت تنتقدين هذا المعطف». فإن رد ميشيل سيزيد في النقد والعدوان. قالت ميشيل بشكل لافت للنظر: «هل فقدت عقلك؟» إن هذا التلميح واضح للغاية.. يعني إن ادعاءك بأنك أنيقة خاطئ للغاية، وهو دليل على أنك فقدت عقلك حتى تقولي شيئاً كهذا. ومرة أخرى فإن الأم تحاول رفض اتهام ابنتها:

الأم: من التي أكثر أناقة مني؟

ميشيل: كلهن.

الأم: من؟ أخبريني أُمٌّ مَنْ مِنْ صديقاتك؟

قالت ميشيل اسم إحداهن، ثم استمرت في الانتقاد متحدثة إلى أختها هذه المرة:

ميشيل: أمي تلبس معاطف بأكتاف مبطنة.

باتريشا: أمي لا تلبس ملابس كهذه.

الأم: هذا المعطف ليس له أكتاف مبطنة.

هنا دافعت باتريشا عن أمها التي دافعت عن نفسها أيضا في صورة تحدٍ لاتهام ابنتها. سألت الأم عن أسماء إضافية: «انتظري دقيقة. مَنْ أيضاً؟» وكان جواب ميشيل واضح: «كلهن يا أمي». وحتى تدعم اتهامها ذكرت ميشيل أسماء امرأتين وقالت: «إنهما ترتديان ملابس طبيعية، ولا يلبسن أشياء غريبة مثلك».

وبمواجهة هذا الهجوم المتصاعد أخذت باتريشا صف أمها وقالت: «أمي أعتقد أنك أنيقة وجميلة». وبهذا الرد التفت ميشيل لأختها وقالت: «توقفي عن التملق لأمي، من المؤكد أنك تريدين منها شيئاً». إن الاتهام بالتملق هو احتجاج وشكوى ضد الانحياز وضد الفريق الذي شكلته باتريشا وأمها. إن عداء الفتاة المراهقة ناتج من شعورها بأنها ليست على مستوى أمها وأختها، ورؤية انحياز أمها وأختها ضدها يعزز من هذا الشعور. إن الأخوات الصغيرات عادة ما يشعرن بأنهن مبعدات ومنبوذات من خلال ما يرونه من انحياز بين الأم والابنة الكبرى ـ انحياز غالبًا ما يعزز بطريقة الجلوس، مثلاً في السيارة فإن الأخت الكبرى تجلس في الأمام بينما تجلس الصغيرة في الخلف. ربما يكون هناك خلاف بين الابنة الكبرى والأم لكن الصغرى لا ترى هذا.

استمرت الأم في الدفاع عن نفسها مستمدة الدعم من ابنتها الكبرى فقالت: «باتريشا لا تعتقد هذا ـ أنا لا أعرف لما تعتقدين أنني ألبس ملابس

غريبة؟» استمرت باتريشا في محاولة إصلاح الحوار وقالت: «أنا أحب طريقة تصفيف شعرك». وأيضاً حاولت ميشيل هنا تفريق الفريق فقالت: «أمي إن باتريشا فقط تقول هذا لأنها تريدك أن تفضليها علي». فقالت الأم – وهي مازالت مركزه اهتمامها على اتهام ميشيل السابق –: «هل فعلاً تعتقدين أنني غريبة الأطوار؟ بصدق؟» ثم أدارت السؤال على أختها وقالت: «هل تعتقدين أنها تلبس ملابس طبيعية؟» لكن باتريشا خيبت ظنها عندما أجابت: «نعم». ثم بعد ذلك غادرت العائلة المطعم لكن الموضوع عاد إلى الحياة في السيارة. قالت باتريشا إنها تفكر بالعودة للعيش بالمنزل بعد تخرجها من الجامعة، واتهمتها ميشيل أنها تقول هذا فقط حتى تحبها أمها أكثر.

هنا سألت الأم سؤالاً منطقياً: «لماذا تهتمين بما أحب أو أفضل إذا كان كل ما أفعل أو أقول مزعج بالنسبة لك؟» ساندتها باتريشا وقالت: «صحيح..صحيح». فقالت ميشيل: «لأني أنزعج منك عندما تفضلينها علي وتظهرين ذلك بوضوح». تراجعت الأم: «لكن لماذا؟ أنت تقولين إنني أفعل أشياء كثيرة غبية ومزعجة إذاً لماذا تهتمين؟» وهنا دارت الطاولة، فعندما تحدت ميشيل إصرار أمها على أنها تجدها «غبية ومزعجة» وبتقديم التفاصيل لدعم ادعائها فإن الأم أعدت لائحة انتقادات من ابنتها منها: «عدم معرفة الأشياء وكونها أم سيئة (كما تدعي البنت) وأيضاً كونها لا تستطيع شراء الملابس الأنيقة مثل أمهات صديقاتها، وأيضًا لأنها لا تستطيع عمل عصير من الفاكهة والحليب كأم صديقتها». وهنا في الانتقاد الأخير نكشف عن مدى الطبيعة السخيفة التي تتخذها الحوارات في العادة. إننا نادرًا ما نرى هذه السخافة في وقتها لكنها تتضح لنا عندما نرجع خطوة للوراء ونخرج خارج إطار الخلاف.

وبالمقابل ردت ميشيل سريعًا على لائحة الانتقادات مشيرة إلى إحدى صديقاتها: «أنت تعلقين على ابنة كريستا وكيف أنها أفضل مني». وهذا التعليق ضرب على الوتر الحساس فقالت الأم: «هذا افتراء وكذب. إن كلامك مثير للسخرية وكذب وأنت تعرفين ذلك. لم أقل هذا في حياتي أبدًا أبدًا. هذا بالفعل خطأ يا ميشيل لأنه كذب، أنت تكذبين». ومرة أخرى ساندتها باتريشا: «يا لك من كاذبة يا ميشيل. أنت أوقح كاذبة على الإطلاق. سوف تقعين يومًا ما في فضيحة كبيرة لأنك تكذبين دائمًا. ستقعين في التزوير لأن كل كلمة تخرج من فمك كذب».

يا إلهي... كانت هناك ضحكات صغيرة بين الأم والبنات بينما كن يتراشقن بهذه الاتهامات الفظيعة وغير المحتملة. بالطبع فإن باتريشا لا تظن بأن أختها الصغيرة سترتكب التزوير فعليا ومع ذلك فإنه من العجيب والمثير للفضول أن نعرف كيف وصل الحوار من جملة الأم الأولى: «هل تحبون هذا المعطف؟». إلى هذا الانفجار. والإجابة تنطبق على معظم النقاش الجدي الذي يدور بين الأم وابنتها، حيث انضمام الانحياز والانقسام التام. ونلاحظ أيضًا تطرف البنت بانتقاد أمها خصوصًا انتقادها للبسها (وهو واحد من الميادين الثلاثة الكبيرة التي غالبًا ما تستخدمها الأم في انتقاد بناتها إلى جانب الشعر والوزن). عندما جذبت الأم الانتباه للمعطف الذي ترتدي، فإن المعطف أصبح كما لو أنه رداء أحمر يعرض بتباه أمام ثور متمثل بابنتها المندفعة.

وما إن بدأت الابنة نغمة الخلاف حتى أصبح كل ما يتفوهون به مثيرًا للمزيد من النقاش والخلاف. أولاً عممت الأم أن ابنتها لا تحب كل ملابسها، وبما أنها لا تحصل على المديح من ميشيل فإنها تمدح نفسها.

وبالمقابل فإن ميشيل تزيد من رفضها لتقبل ملابس أمها عن طريق وصفها بالمجنونة. ثم تتحدى الأم ابنتها ـ وسيلة للدفاع عن النفس ـ بأن تقدم الأدلة التي تبين لماذا لم تكن الأم أنيقة، الشيء الذي حث ميشيل على المنافسة بزيادة. ثم استخدمت الأم أجوبة ميشيل كدليل على أن ميشيل تعتقد أن أمها غبية ومزعجة. وهكذا استمرت... كل إهانة جديدة من الابنة حثت الأم على الدفاع عن نفسها، و كل حركة دفاعية من الأم حثت البنت على زيادة حدة هجومها.

يغطي هذه المجابهة اللولبية غضب ميشيل الكبير تجاه أختها باتريشا التي أخذت صف أمها وكونت فريقًا معها ضدها. ولم تغفل الأم عن سخرية ميشيل التي تريد حب أمها، بينما كانت تتصرف بطريقة تبتعد عن أي معنى للحب. وعندما حددت الأم كيف أن ميشيل أظهرت عدم حبها فإن ميشيل ردت بسرعة وبطريقة معاكسة ومنطقية للجدال: «ربما تكوني على صواب بأني لا أحبك لكنك لا تحبينني أيضاً». إن الاتهام المماثل طريقة اعتيادية في الجدال، لكن قول الأم بأنها لا تحب ابنتها هو من أسوأ الاتهامات ولهذا وصل تجاوب الأم إلى أعلى مستويات الغضب. لأن الضربة الأخيرة كانت قد أثيرت بسبب سؤال ميشيل لأمها عن قولها بأن ابنة كريستا أفضل منها، نقطة الخلاف هذه تستحق الاكتشاف. سأكون على استعداد للرهان بأن الرسائل الخفية أو ما وراء الرسالة هي قلب وأساس هذا النزاع. على الأرجح إن الأم على صواب برفضها لاتهام ابنتها بأن ابنة كريستا أفضل من منها. لكني متأكدة من أنها مدحت سابقا ابنة كريستا بطريقة أو بأخرى. وبما أن البنات المراهقات ألطف مع أمهات صديقاتهن أكثر من أمهاتهن، وبافتراض أنها فعلت فإن ميشيل ربما التقطت الرسالة الخفية في كلمات الأم: «أنت لا

تستحقين المدح الذي أقوله لابنة كريستا». إن نزعة الإنسان بالشعور بالنبذ عندما يمدح أحدهم الشخص الثالث هو شعور عادي، وربما يكون تجاوبًا كونيًا. هناك تعبير خاص في اللغة التركية يستخدمه المتحدث عندما مدح شخصًا غائبًا «طرفًا ثالثًا» وهو «زيزتين ايي اولمازين» والترجمة القريبة هي «أرجو أو أدعو ألا يكون هو أو هي أفضل منك». وفي معنى آخر «لا تعتقد أني عندما أمدح هذا الشخص أعني أنك لست بنفس المستوى والمقدار». لذا فإن ميشيل على الأرجح سمعت في كلمات أمها أنها ترى ابنة كريستا أفضل منها بالرغم من أن الأم لم تقل هذا.

وعند العلم بأن كل خطوة في الجدال قد ترتبت بشكل منطقي على الخطوة التي سبقتها، فكيف كان من الممكن تفادي هذا التصاعد؟ وبما أن ميشيل مراهقة، فسأركز على الأفعال التي كان باستطاعة الأم فعلها. ليس هناك أي شيء يمكن أن تفعله الأم لتفادي الانتقاد من البنت المراهقة، لكن التحدي هنا أن نتأكد من عدم تصاعد الخلاف وخروجه عن السيطرة. وإنه من الأفضل أن تترك الأم الموضوع إذا استطاعت، بدلاً من تكبير مسرح المعركة. وللأسف فإن أم المراهقة عليها التخلي عن الأمل في سماع أي شيء إيجابي من ابنتها المراهقة. وأية حركة تتطلب تجاوباً إيجابياً تترك الأم عرضة للنبذ والتألم.

مع أن ميشيل في هذا الحوار قالت: «هل فقدت عقلك؟» فإنها كانت تعني المزاح والسخرية بلا شك. ومن الطبيعي سماع اتهامات كهذه من الفتيات المراهقات، بل وأسوأ منها أيضاً. وعند تصرف المراهقة بهذا الشكل فإنه من الأفضل على الأم إنهاء الحوار بطريقة كهذه: «لا يمكنك التحدث إلي بهذه الطريقة». أو حتى يمكنها قول: «ليس عليك أن تحبيني لكن عليك أن

تعامليني باحترام». هناك خيار آخر للأم وهو إعادة تشكيل الحوار، أن تقول مثلاً: «هذا الحوار يجعلني أشعر بعدم الراحة وبالحزن لنغيره إلى حوار آخر». وإذا لم تهدأ الأزمة أو يتغير مزاج الحوار فيمكن الأم الطلب من الأخت الكبرى بأن تتوقف عن أخذ صفها ومساندتها بالحوار بالرغم من صعوبة ذلك. وفي الحقيقة ليس هناك ما يمنع من أن تنعم الأم بهذا الدعم بشكل سري. أي شيء يمكنها أن تفعله لقيادة الانقسام التام في الحوار والحذر من الانحياز سيعطيها قوة تحكم أكبر في الحوار، ويضعف فرصة تحول التعارض والنزاع اللولبي إلى خلاف كبير.

كيف لنا الخروج؟

بالرغم من أن الحوار بين ميشيل وباتريشا وأمهما هو خاص بالعائلات التي لها فتيات مراهقات، إلا أن هذا الحوار يشترك بصفات كثيرة مع النقاشات التي نجد أنفسنا عالقين بها. أعتقد أننا نعلق بنفس الحوار مرات عديدة لأنها الحوارات الوحيدة التي نستطيع أن نتشارك بها. إذا جربنا أنواعاً مختلفة من الحوارات فربما نكتشف أننا نستطيع المشاركة بها أيضاً أو أننا على الأقل يمكننا أن نتعلم.

ولنر كيف يمكن لهذا أن يحدث. لنرجع إلى الحوار الذي في بداية هذا الفصل حيث تشجع منى ابنتها على الانتقال إلى منزل قريب من عملها حتى تخفف من الأعباء و الالتزامات. منى «الأم» يمكنها أخذ القرار بعقد لسانها، فقد وضحت وجهة نظرها لابنتها مرات عديدة، وليس هناك ما يمكنها فعله. وهذا لا يعني فقط مقاومة الرغبة في قول أي شيء عن هذا الموضوع، بل أيضًا محاولة منع رأيك من التسرب. وقد دهشت حقًا عندما

قالت أكثر من أم عن أشياء في بناتهن لا يوافقن عليها، لكنهن لا يتفوهن بكلمة للبنات وفي الوقت نفسه ذكرت البنات في مقابلة مختلفة أن أمهاتهن لا يتوقفن عن الكلام في الموضوع نفسه. ومن المحتمل أن الأم لم تقل شيئاً على مستوى «الرسالة الصريحة»، لكن البنت سمعت المعنى عاليًا وواضحًا على مستوى «ما وراء الرسالة.»

إذا شعرت منى بالإحباط لعدم مقدرتها على عرض قضيتها بالشكل الكامل، أو شعرت أنها ملزمة بتذكير ابنتها بالخيارات المتوفرة بين يديها فيمكنها إيجاد الوقت المناسب للحديث في الموضوع، والبنت تشعر دائمًا بما تريد أمها الحديث عنه. ولو أن تريسي شعرت بأنها تتحدث مع أمها في حوار هادئ فإنها لن تصاب بالعمى ولن يتحول الحوار العادي إلى حوار متوتر بالرغم من توقع ذلك.

وبالنسبة لما يمكن لتريسي فعله هو اتخاذ القرار بأنها لن تدخل في هذا الحوار، وإذا فتحت أمها الموضوع فإنها تقاوم الرد. يمكنها صراحة قول: «دعينا لا نتكلم عن هذا الموضوع». أو يمكنها الوصول للنتيجة نفسها عن طريق تغيير الموضوع. يمكنها أيضًا اقتراح النقاش في هذا الموضوع في وقت آخر بغض النظر لو كانت فعلاً تود ذلك. عندما لا تسير أمورنا بالطريقة التي نريد فإن تجاوبنا غالبًا هو فعل العمل نفسه لكن بشكل أقوى. والشخص المقابل على الأرجح سيقوم بفعل ما فعله سابقًا للرد علينا لكن بشكل أقوى أيضًا، والنتيجة كما رأينا الانقسام التام. وأي شيء تفعله الأم (أو البنت لو كانت راشدة) لإيقاف هذه الدورة سيكون نعمة. وعادة ما يعني هذا التخلي عن أعمال تبدو لنا مناسبة.

تأمل تلك الحالة التي تلتمس فيها الأم القرب من ابنتها بينما تعتقد البنت أن أمها متطفلة أو كثيرة الاحتياجات. الحل من الممكن أن يكون مثيراً للسخرية. فلو أن الأم لم تبد يائسة للقرب والتواصل مع ابنتها ربما لاجتهدت البنت في التواصل مع أمها. ولو أن البنت أظهرت اهتماماً أكبر بصحة والدتها لربما توقفت الأم عن الشكوى عن صحتها بشكل دائم. والعكس صحيح أيضاً، فلو أن الأم لم تتبرع بمعلومات عن صحتها كان على البنت أن تسألها. ولو أن البنت تبرعت بمعلومات أكثر عن نفسها أو حياتها فإن الأم ستقلل أسئلتها وهكذا.

من الممكن للبنت أن تدعو أمها إلى داخل حياتها بشكل غير محسوس، مثل الذهاب معها في رحلة حول المدينة، أو أن تسأل أمها النصيحة عن أفضل هدية يمكنها شراؤها لزواج صديقتها حتى ولو أنها لن تأخذ برأيها، (مع ذلك من يدري ربما وجدت إحدى نصائح أمها مفيدة). هذا سيجعل الأم تشعر أنها مرتبطة بحياة ابنتها مما سيقلل من محاولاتها لإيجاد طرق للتقرب والترابط والتي عادة ما تكون مزعجة للبنت. وبهذا فإن الانقسام من «الانقسام التام» يتحسن، وبدلاً من تطور العلاقة بالبعد تصبح الأم والبنت أكثر قربًا وهذا يقلل من التصرفات المؤذية والجارحة.

بغض النظر عن نقطة الخلاف فإن حال الأم والبنت سيكون أفضل لو استطاعتا تجنب الحفر الصغيرة التي تسرب الإحباط والنبذ. لنعد قليلاً للأم آيرين التي تشعر بالألم لأن ابنتها لا تود مشاركتها بحديث ودي تقدره الأم على أنه علامة قرب وتواصل. ولنفترض أنهما تتحدثان على الهاتف في حوار قصير للتخطيط لزيارة البنت لأمها . تقول مارج لأمها آيرين: إن آخر شهر مايو سيكون جيدًا، ثم تقول آيرين: «كنت أفكر في تحديد موعد جراحة ركبتي في هذا الوقت».

تعـبر مارج عـن مفاجأتها قائلة: «أمـي.. لم أكن أعلم أنك سـتقومين بعمل جراحة لركبتك. لماذا لم تخبريني؟»

حسنًا.. سيكون من المغري جدًا لآيرين أن تقول لابنتها: «كنت سأخبرك لو أنك تتكلمين معي على الهاتف أكثر من دقيقتين». ربما تجد آيرين هذا التعبير مرض للغاية لتوضيح ما تعانيه، لقد عثرت أخيرًا على دلائل لوجهة نظرها، لذا لماذا لا تلفت نظر ابنتها إلى هذه الدلائل؟ والسبب في عدم فعل هذا هو الانقسام التام. مثل هذا التعبير سيلمح وينتقد الابنة لأنها لا تمضي مدة كافية مع والدتها على الهاتف، والنقد جارح دائمًا. فإذا كانت علاقتك قريبة من شخص فربما تراه يهاجمك فجأة أثناء الحديث ويسدد إليك الضربات اللفظية. لذا فإن النتيجة ستكون بالضبط عكس ما تود آيرين، وهي تصميم ابنتها على جعل المكالمات قصيرة وقليلة. والطريقة الفعالة لإبطال مفعول أي خلاف هي تغيير حالة أو صيغة الحوار إلى الفكاهة. وقد رأينا كيف فعل هذا الأب في الحوار الذي دار حول «وال مارت». يبدو أن الرجال يستخدمون أسلوب الفكاهة أكثر من النساء في هذه الحالات.

تلقيت بريداً إلكترونياً من رجل يدعى مايكل إيكينرود وصف فيه نمطاً قريباً من هذا في عائلته. فبعدما ذكر كل الطرق التي تنتقد بها الأم أخته ـ وكل شخص أيضاً ـ قال: «لو كنا نتابع برنامجاً فكاهياً مثل «الجميع يحب ريموند» فإن الأمهات في البرنامج مضحكات، لكن الأمر في الحياة الحقيقية غير مضحك. فلقد وجدت ـ على الأقل في عائلتي ـ أن النساء دائماً تجاوزت سنوات عمرهن الرجال بكثير. فبموت آخر عجوز منهن قبل عدة سنين لم يعد هناك أحد ليفرغ حدة التوتر بفكاهة بذيئة وفظة».

الفكاهة بالفعل مثلها كأي إستراتيجية لفظية من الممكن أن تنجح في بعض الحالات لكن ليس دائماً. وعند قراءتي لهذا البريد تذكرت أن والدي كان يطلق النكات دائمًا مبهجًا الجميع، لكن أيضًا تذكرت إحباط أمي عندما حصلت نكات زوجها على اهتمام الحاضرين بدلاً من اهتمامهم بما قالت: «خذ راحتك واضحك.. كل شيء بالنسبة لك مزاحٌ!».

تستخدم النساء الفكاهة أحياناً لتحريف النزاع أيضاً ونصيحتي أن تزيد النساء من استخدام هذا الأسلوب وإن كان جديدًا عليها، فلعلها تتجرأ وتبدأ باستخدامه.

هنا مثال لكيفية عمل الفكاهة في تحريف وتغيير مسار خلاف مستمر بين أم وابنتها. الأم أحبت أن تعرف مبكراً كيف سيكون برنامج مواعيدها خصوصًا إذا كان هناك خطة للسفر، حتى يتسنى لها أن تستغل موسم تخفيضات التذاكر. والبنت دائمًا تميل إلى إهمال ترتيب جدولها حتى اللحظة الأخيرة، وفي العادة تقوم بالحجز قبل بضعة أيام لا تمكن الشخص من استرجاع نقوده في حال التغيير. وفي سنة من السنوات وبعد عيد الشكر قالت الأم: «لقد أمضيت عيداً سعيداً مع أصدقائي هذه السنة لكني كنت أفكر أنه من الجميل قضاء العيد القادم مع العائلة. ما رأيك لو طبخت العشاء في العيد القادم لك ولزوجك ووالديه؟» أجابت الابنة: «تعرفين... أنا لا أقوم بعمل تخطيط بعيد المدى كهذا يا أمي. لماذا لا تكلميني قبل العيد بأسبوع وسوف نتحدث وقتها؟» بدلاً من أن تقول مباشرة أن التخطيط للعشاء الذي سيتم بعد سنة من الآن هو شيء سخيف ومناف للعقل فإن الابنة استخدمت طريقتها بترك القرارات للحظة الأخيرة كعذر. والفرق بين السنة والأسبوع كان مضحكًا جدًا لدرجة أن الاثنتين بدأتا بالضحك ـ وفهمت الأم ما كانت البنت تحاول إيصاله.

إن الفكاهة كما رأينا سابقاً هي واحدة من الطرق العديدة التي يمكنها إيقاف تحكم الانقسام التام بالحوار. ببساطة فإن فهم كيفية عمله، وكيف يمكن للانحياز أن يلعب دوراً في الحوار هو الخطوة الأولى تجاه الحوار البهيج أو البائس، والذي يمكنه أن يحول الحوار اللطيف إلى حوار شيطاني بين الأم وابنتها الراشدة. إذا كنت لا تفهمين ما الدافع داخل حواراتك المسببة لألمك إذا فمن الصعب عليك تغيير الحوار إلى اتجاه آخر. إنه من السهل اتهام الطرف الآخر، أو أن نشعر أننا نتصرف بشكل مبرر وواضح. لكني أستمر بالإعجاب بتلك النساء اللاتي أخبرنني بأنهن ما إن بدأن بفهم طريقة نمو وعمل الحوار حتى فهمن وجهة الطرف الآخر. وأدركن أن لديهن القوة في التجاوب بطريقة مختلفة. إن تغييراً بسيطاً في أسلوب الرد والتجاوب يمكنه تفادي الحريق الهائل وتحسين الحوار ومن ثم تحسين العلاقة بين الأمهات والبنات.

obeikan.com